الوسائل المادية ودلالاتها في شعر الرواد (السياب-نازك-البياتي)

الأستاذ المساعد الدكتور
صدام فهد طاهر الاسدي
جامعة البصرة – كلية التربية

في مستهل البحث

الوسائل كل ما أوجده الإنسان واسهم في تطوره منذ القدم حتى وقتنا الحاضر وانتفع منه الناس جميعا ،تعد حضارة وادي الرافدين أقدم حضارة عرفها الإنسان على وجه المعمورة وازدهرت آدابها وفنونها ومعارفها قبل ان تظهر الى الوجود أثينا وروما بقرون كثيرة١، ولعلنا لا نغالي إذا قلنا مبتعدين عن رؤى الفلسفة مادام الإنسان متحررا من مادية الطبيعة ويرغب في توسيع دائرة الرؤية إلى الأشياء إلى ابعد مسافة ممكنة فقد تتوسع بمرور الزمن آفاق رؤيته لذا تعد **(كل الوقائع البشرية أجوبة لذات فردية او جماعية تشكل في جملتها محاولة لتعديل وضع معين نحو اتجاه ملائم لطموحاته)٢، وعلى حد تعبير الدكتور مسلم حسب(ان الأدب الحي يلتقط مكوناته الاساسية من الواقع ويطورها ليخلق منها واقعا جديدا هو الواقع الشعري)٣ .**

والوسائل قيم بشرية يؤكد ها الإنسان ويحرص على ديمومتها لأنها من ثروات وطنه ومقتنيات أمته ينافس بها ويتذكرها ويباهي بها من يناقضه، ،لذا وقف هذا البحث يتفحص تلك الوسائل عبر نماذج تتوقف على الرواد، ولا ازعم أبدا فرادة هذا الكشف أنما هي وجهة نظر ربما تخطيء أو تصيب فارتأينا أن نقترب بدراسة أدبية للهرم الشعري في العراق غير متجاهلين عطاء المبدع الآخر ولكن منهجية البحث رست سفينتها على السياب ونازك والبياتي في ثيمة جديدة لشعراء رواد على حد علمنا المتواضع قد(هضموا التراث فجعلوا له امتدادا ولم يجعلوا له استدارة نحو أنفسهم أو نحو الماضي او نحو القلب فقط يريدون منه امتدادا نحو آفاق أخرى)٤،وبقدر فهمنا بهذا التنسيق والتنظيم لمفردة الوسائل المادية .

لايختلف اثنان بان الكتابة أولى تلك الوسائل،وكلنا نعلم بان تدوين الكلمة يعد من أعظم الوسائل المادية التي خدمت الإنسان طوال القرون و حفظت لنا تراث الأجداد والآباء على مر التأريخ،ونعلم بان بذرة الكتابة قد زرعت في ارض الرافدين ودليلنا أقدم لوح طيني وهي اطول الحضارات عمرا ومنها انطلقت معظم الآداب الإنسانية التي جرى عليها تغيير وتحوير وتبديل لعدم التدوين عكس حضارتنا تماما وكان القران المعجز كتاب الله الخالد جاء فيه لفظ الكتاب في أكثر من سورة منها(ذلك الكتاب لا ريب فيه)٤ وكانت أولى وسائل الكتابة عند السياب تأتي مرمزة بدلالات أهمها التعبير عن أهمية القلم بوصفه واسطة للتعبير بين الأحبة لا يتحدث إلا بجهد فاعله كوسيلة حضارية للاتصال ويؤكد على الإجحاف من الحبيبة بعدم الرد على رسائله والبخل عليه بالحبر الرخيص والأكثر بخلها بسحبة القلم وهو على اشد شوق وحاجة للرد عليه :

لم تبخلين علي بالورقات
بالحبر القليل
وسحبة القلم الصموت٦

ولكنه يرى هذا المعطى دفينا بين أكداس كتب في قوله وهو يحمل حزنه القاتل حين يرى الكتاب حبيسا فوق الرفوف وسجينا بين أكداس يشملها النسيان مؤكدا تخلف الناس وعدم وعيهم :

دفينا غدا بين أكداس كتب٧

والبياتي أشار إلى الأقلام الأجيرة التي تباع وتشترى بأرخص ألاثمان وأراد تحريك الضمير الإنساني وهو يعيش الغربة والبعد لكنه يتأمل هؤلاء رخيصي الكتابة ولكنه يراهم مقنعين العار بالعار فلا حلول لديهم سوى الزيف وطعن الحقيقة قائلا:

رأيتهم في ليل إسفاري
يقنعون العار بالعار
أقلامهم للبيع معروضة
في أيما حانوت سمسار٨

وليس غريبا أن يكون للكتب والمنشورات حضور في شعر السياب وقد جعل من الكتاب مرقدا للمقلتين وهنا تظهر دلالة الارتباط بين المقلة المبصرة وبين الكتاب طريق الإنسان للعلم والمعرفة :

من شرفة زرقاء
علم بالكواكب والضباب

من مقلتين على الطريق
مقلتين على كتاب٩

وهو يجد سيرة الإنسان مكتوبة في الورق وعلى الصفحات تغرس الأيام وتسجل الذكريات ويصر على اختراق صفحات الكتاب لمعرفة أسرار الدم التي اشتعلت بالزهر ومع هذا لا يهرب من ولوج سلافة الجحيم راغبا أو راهبا:

دخلت من كتابك الأثيم
حديقة الدم التي تؤج بالزهر
شربت من حروفه سلافة الجحيم١٠

وكم يتألم حين يطلب من حبيبته أن تصب سناها وبريقها اللامع على كؤوسه الفارغة ويطلب منها متألما أن تبعثرها على الكتاب مشيرا إلى ذلك الارتباط الحميمي بين السنا والكؤوس الفارغة التي يختار مكانا دافئا لها وهو البعثرة على الكتاب الوسيلة الصادقة عند الإنسان:

صبي سناك على التراب
وعلى الكؤوس الفارغات
وبعثريه على كتاب١١

أما الرائدة الأنثى المهيمنة في سرب الصراع نازك الملائكة فقد رسمت رؤى متجددة للحرف وسيلة النطق في أغنية حب للكلمات وقد أشارت بطرف خفي إلى ذلك الغول المزروع في الألفاظ حينما يجرد الخطأ ويبين الحقيقة ويخرج العيوب وكم تتساءل عن الملامين في تكبيل الحروف من حريتها وحقيقتها فقد منعناها فرصة الخير بان تفرش الظلام وتحيله الى نور وبهجة وضياء:

وحسبنا أن في الألفاظ غولا لا نراه
قابعا تخبئه الأحرف عن سمع القرون
نحن كبلنا الحروف الظامئة
لم ندعها تفرش الليل لنا١٢

بهذه الرؤى تفصح نازك عن وليد عربي وموروث أصيل قتلته أمته وتركته قسرا على جدران النسيان فتلح بالرغم من هذا الفعل على صفاء الحرف وعطائه الثر،حيث تأتي الحروف بالرغم من صمتنا تخترق أعماقنا وتزيل همومنا أبينا أم رفضنا إنها الصديقات المخلصات دائما:

الصديقات التي تأتي لنا
من مدى أعماقنا دافئة الأحرف ثره
إنها تفجؤنا في غفلة١٣

هكذا ترسم الحروف صديقات دافئات المعاشر ،وثمة لمحة تدل على الأسى وهي ترسم لقصاصات الأوراق صورة التمزق قائلة:

لم يسمع الصرخات يرسلها السياج
وقصائص الورق الممزق في الخرائب والغبار١٤

وأخرى تلعن بها الورق وسيلة الكتابة وتصرخ فلتسقط":

وقد اضحك وقد ابكي واسهر في الدجى
وانا
سواء أنت مشغول
بأوراقك والحب على المكتب مقتول
ألا فلتسقط الأوراق والاقلام١٥

ويتضح جليا هذا الوصف من نازك وهي تقارن انعكاسات حالتها النفسية بين ضحك وبكاء وحال الآخر على مكتبه مشغول ،ولم تنس الحبر الذي ترقرق في دواته مشبهة هدير الأمواج ولونها الأزرق بالحبر وكيف تفعل الكتابة فعلتها في تغيير المكان وملئه بالراحة والطمأنينة:

نرش جبينك الجدي بالاطياب
نرقرق في دواة الحبر بعض تحدق الموج
وننجي خشب المكتب من برد ومن ثلج١٦

وتظهر لنا الصورة واضحة في القصيدة نفسها وهي ترسم للمكتب صورة الانشغال لحبيبها أولا وصورة حماية المكتب الذي يشغله من البرد والثلج إشارة لقهر الطبيعة للإنسان.

والبياتي يبدأ معطياته بان الحرف وسيلة الكتابة أول من علمه على جوب البحار ولكن سندباده مات على مركب نار،وتجتمع وسائل الكتابة في قول عبد الوهاب البياتي وهو يصور بعمق وإبداع الطفولة كيف ترتبط بها الكتابة والقراءة وكيف تلعب الصحف دورا في تثقيف الإنسان وهو يحمل ذكريات طفولته ويمشي مغتربا متابعا الطيور الراحلة إلى لا مكان بانيا أسوار خوفه وصمته على البعد :

ويقرأ المكتوب في دفاتر الأطفال
-ومزق الجرائد الصفراء وكتب الإسفار
ويتبع الطيور للمنفى ويبني دونها الأسوار١٧

ولا تغيب الإشارة على المتلقي فالمكتوب الحرف والجرائد حاملته وكتب الإسفار تراثه المنصرم وهي دالات على أصالة تأريخه في رؤى تنطوي على وعي غريب بالزمن والفكر المقلوبين على حد قوله:

مرت ونار ومضت من خلل الرماد
لنقرأ الكتاب بالمقلوب
منقبين في حواشيه عن المكتوب والمحجوب١٨

انه يريد البحث والتنقيب والتساؤل عن أسباب أصالة ما تقول لكن ماذا يفعل حينما يجد الورق وسيلته قد ماتت أيضا:

تناثري حطام
مع الرؤى والورق الميت والاعوام١٩

فلا حياة لموت الحقيقة فالورق يموت بدونها وقد تحترق الأوراق الخضراء وسيلة الفكر :

واحترقت أوراقنا الخضراء في الحديقة المعطار٢٠

وكلنا نعرف البياتي شاعرا هو السند باد وجواب البحار والسفير والمتنقل للغربة الدائمة حتى وفاته والمفتعل للمطاردة والمتابعة انه يصنع غربته بيده غاضبا باحثا عن مدينة فاضلة حيث بوصف الزمن ثعلبا ملتحيا بالورق:

الثعلب العجوز
الملتحي بالورق الأصفر والرموز٢١

وهنا جاءت دلالة اللون الأصفر لتقول رافضة ما تراه مقلوبا بفعل الإنسان المتمرد على أصالته محطما لها،وكم يتألم البياتي حزينا حين يبقى الكتاب معلقا على رفوف النسيان وهو يذبل كما تذبل النواة ،وكيف يصبر أمام جهل شعب لا يقرأ ولا يكتب وقد جفت الثقافة ومات دور المثقف وأصبح مهملا محاصرا منسيا والمجتمع يغور تحت براثن الفقر والجوع والصمت والخوف مثلما يجف الكتاب وتتمزق صفحاته دون قارئ ومتابع ومتذوق:

اجف كالنواة
كالكتاب فوق الرف٢٢

وكان الورق وسيلة الكتابة يدمي نفسه حزنا حين يجد ثوب عري أهله واضحا مكشوفا فيتحسر على صحراء الجهل ويندم على ضياع عمره لا جدوى فلو رجع بيته لمزق كل شيء حتى المكاتيب التي غطاها غبار الإهمال والنسيان

آه من عري القفار

–آه لو عدت إلى بيتي

لمزقت مكاتيبي وأوراق الغبار٢٣

في البدء كانت الكلمة فهي الحياة وهي البشر والأشياء والأفكار قائلا:

أيها الحرف

الذي علمني حب الحياة

أيها الحرف الإله

آه لا تطفئ مصابيحك آه٢٤

انه يتأوه متحسرا كيف ويذبل مصباح الحياة وتموت الكلمة إنها التي علمته ان يجوب البحار وهو يعلم علم اليقين أن حرفه مدمى ومنفي ومحض شعار لكنه لا ينفصل عنه،وللبياتي رؤيا أخرى للحرف فيناديه في محض صلاته مقدسا له.

ثانيا: وسائل النقل–السفينة

من الوسائل التي كثرت في قصائد الرواد وما تبعها من ألفاظ (زورق/بلم/ وهي وسائل نقل صنعها الإنسان لتنقله وترحله كمعطى حضاري ومن خلال دراستنا لشعر السياب وجدنا الشاعر شديد التعلق بالسفينة وهي وسيلة صنعها الإنسان للرحلة ويعدها معطى حضاريا،والسياب ابن البصرة الفيحاء ، نشأ وترعرع في بلدة أبي الخصيب ، وهي مليئة بالسفن والزوارق والأبلام ، وقد وردت في القران الكريم في سورة الكهف (فانطلقا حتى اذا ركبا في السفينة خرقها)٢٥ لذلك لم يكن مستغرباً أن يخلدها السياب في شعره ،. فقد ذكر في شعره السفينة والزورق والبلم والشراع والمجداف والمرفأ في أكثر من خمسة وثلاثين موضعاً ،،حين يحاكي ابنة الجلبي وهو يقطع الدرب إلى الحبيبة يجد الوسيلة (السفينة) التي تعد ناقة عصره في قوله:

طوقت المعابر

من جذوع النخل في الأمطار

غرقى من سفينة سندباد٢٦

وأستعمل السياب ((مصباح السفينة)) في أكثر من موضع ، للدلالة على الارتباك والحركة المستمرة المصحوبة بالاضطراب ، فتأمل قوله حين خاطب حفار القبور عندما نبش قبر امرأة قال:

والنور منفلقاً من الأهداب
... تثقله الطيوب ،
قلقاً كمصباح السفينة راوحته صباً لعوب ،
وتخافق الأطلال في دعةٍ
، ووسوسةُ الحرير ٢٧

وهو يكرر ذكر مصباح السفينة للتعبير عن حالة الأظطراب ، وعدم الاستقرار ليكشف لنا عن حالته المضطربة لشدة المرض الذي صار عضالاً .، وفي قصيدته ((فرار عام ١٩٥٣)) ، يصف رحلته بالسفينة ، حين رحل عن شواطئ العراق مجبرا مضطربا مطرودا بسبب موقفه السياسي واحتجاجه على السلطة ونتيجة إهمال السلطة للشاعر ومطاردته ولكنه يظل مرتبطا بوطنه محبا له على البعد :

في ليلة كانت شراييننا
فحماً ، وكانت أرضها من لحود
يأكل من أقدامنا طينُها ،
تسعى إلى الماء ،
إلى شراع مزقته الرعود .
فوق سفين دون أضواء
، في الضفة الأخرى ... يكاد العراق
يومئ ؟ يا أهلا بأبنائي
لكننا ، واحسر تاه لن نعود
...
أمن بلادي هاربٌ ؟
أيُّ عار !!–وأرتعش الماءُ وسار السفين
وهبّت الريح من الغربِ
–تحمل لي دربي.٢٨

وبهذا النص نستطيع أن نقول : إنّ السفينة و... قد أخذتْ صورتها من أعماق ذاته. ولكنها تأتي في صور مجازية أخرى لتصبح دالة على الغربة حتى تصبح السفن المحملة بالعطور من نهود حبيباته إلى الصين:

ترف شعورهن علي
تحملني إلى الصين
سفائن من عطور نهودهن
،أغوص في بحر من الأوهام والوجد٢٩

وقد صور سفينته التي رجعت محطمة من الرحيل وهي إشارة دالة لعمره:

ويا موتي
ولا موت،
ويا مرسى سفينتي
التي عادت ولا لوح على لوح٣٠

والزورق كوسيلة يتنقل فيها الإنسان جاءت في رؤى متنوعة في شعر السياب وأراد به الوحدة وقرب المسافة مختلفا عن السفينة الأكبر حجما وابلغ بعدا في التنقل في قوله:ظلال الليل أين أصيلنا الصيفي في جيكور

وسار بنا يوسوس زورق في مائه البلور٣١

وكم تحدث السياب بشي من الجزم والنزق بدلا من التضرع وهو يصف نفسه بالسفينة التي كسرت أجزاؤها ولا يمكن السير بها:

أليس يكفي يا اله
إن الفناء غاية الحياة
فتبلغ الحياة بالقتام
يحتلني بلا ردى حطام
سفينة كسيرة تطفو على المياه٣٢

وتأتي الزورق كلمة مرادفة للسفين حيث كانت الزوارق العشارية تطفو على ضفاف شط العرب أو يستخدمها الناس في التنقل فقد ندى السياب الزوارق مطلقا عليها صفة البياض دلالة النقاء وعدم التلبس بالشر

ياموج
يا ملاح
يا بيض الزوارق يانخيل٣٣

البياتي يتركنا في أغراسه المتفتحة في حيرة حقا ،كما رأى الدكتور إحسان عباس (لقد ألقى الأولان–بدر ونازك–حجرا في ماء الشعر وسرهما إلى حين انديا الدوائر واتساع أقطارها في ذلك الماء وذهب الثالث–البياتي–يعمل على تحويل مجرى ذلك الماء ليسقي غراسا مختلفة)٣٤

ولعلنا نقتطف شيئا من تلك الغراس،والبياتي له رؤى تتفق مع دلالات أرادها السياب وتختلف حينا فهو يرى الزورق معطى أبديا لا تغيره البلدان المتخلفة:

عائشة ليست هنا
ليس هنا احد
فزورق الأبد
مضى غدا
وعاد بعد غد٣٥

يظهر تشاؤمه وهو يشير إلى انطفاء الأمل ويتوقف عند اليأس قائلا:

سفينة تغرق في عاطفة تابوت

يضم عظمين وعنكبوت٣٦

يشبه نفسه بالسفينة الغارقة وما جرى من عوارض الزمن من بؤس وضعف لـــذا يشيد يوتوبيا ذاته سفينة حلم قائلا:

أبحرت السفينة
تبحث في الأصقاع عن مدينة
لم يقف الشحاذ يوما ولم
يسند على رصيفها جبينه
لكنما السفينة عادت مع المساء للمد ينه٣٧

انه في حيرة البحار الباحث عن مدينة لايراها أبدا إنها سفينة غارقة وضعف البدن من نتائج الضعف، وهو يرى السفينة في مخاطرها جنازة موت سائرة بمن تحمل:

كزورق ليس به احد

جنازة الشمس إلى الأبد٣٨

وهذه الإشارة ترد عند البياتي فقد وصف الزورق :

يا زورقا يهتز في ريح الغياب

واراك يا بغداد شامخة القباب٣٩

ويتضح الاحتراب الداخلي عند البياتي سببا جعله يطلق من قلبه آهة جريحة قائلا:

أواه يا وطني
ويا طفلا تمزقه الحراب
يا زورقا يهتز في ريح المغيب
ويا مناديل الغياب٤٠

وللرائدة نازك موقفها المأساوي مع الزورق في مأساة الحياة وأغنية الإنسان فـــي مطولة شعرية قائلة متسائلة:

أتري الزورق الكليل تنيره اكف الأقدار كيف تشاء٤١

انه زورق العمر التي تلعب به الأقدار ولكنها تستسلم للقدر دون تغيير مصير والسفينة عندها مرحلة حلم لا تعرف أين تبحر معها :

سيرتني الحياة أين مرسى سفينتي وعند أي رحال٤٢

هذا تساؤل غريب لمن لا تعرف قدرها ،فلها وجهة نظر أخرى في دلالات هذه الوسيلة فقد رمزت بالزورق والسفينة إلى النجاة والهروب من مصاعب الأيام وغضب الدهر.

٢- القطار: يرد عند الشعراء الرواد بدلالات متنوعة فالسياب يسميه قدرا ،وكيف يضع دلالة الصوت مثل نواح النسوة في آخر الليل يبلغ صوت القطار الإسماع قائلا:

ترفع بالنواح صوتها مع السحر
ترفع بالنواح
صوتها كما تنهد الشجر
تقول يا قطار يا قدر
-قتلت إذ قتلت و الربيع والمطر٤٣

وهكذا ورد القطار عنده صوت يبشر بالخوف وهو يطلق صوته المزعج آناء السفر في الليل:

يدري بانا ما لذي تحذرين
وانخطفت روحي وصاح القطار
ورقرقت في مقلتي الدموع
سحابة تحملني ثم سار٤٤

ويتضح لنا أن السياب يصف تلك اللحظات التي يبدأ فيها انطلاق القطار وليس عنده إلا الدموع وسيلة تترقرق وهو يسير بعيدا عن أحبته واصفا رحيله عنهم وكم كرر صوت القطار وصفيره المخيف في قصائده بالرغم من كون القطار وسيلة نقل نافعة إلا انه يبعده عن أحبته فكل خطوة يسرها القطار خطوة تقطع نياط قلبه مؤكدا صورتين مختلفتين أولهما صوت مسير القطار وثانيهما صوت السفينة عندما تنطلق بالرحيل فكلاهما مثيرتان مخيفتان للشاعر:

ويلمح العاشق في عيوننا الوداع
إذ يصفر القطار أو يصفق الشراع٤٥

ولم يفق الشاعر من نداء أبيه واصفا صفير القطار:

أبي يا أبي
أبي يا أبي في صفير القطار
أبي يا أبي في صياح الصغار
خفاف الخطى يعبرون الدروب
بلا غاية يقطفون الثمار٤٦

أما القطار عند البياتي فقد شكل رمزا لتعظيم مشاعره الخفية المحتدمة في نفسه قائلا:

لتغسل الأمطار-نافذتي
ليحمل القطار حبيبي القطار٤٧

ولا يزال قطار العمر ماضيا للإمام فلن يتوقف وهو يخاطب ولده عليا:

والليل مات
والمركبات
وقطارنا أبدا يفوت٤٨

ويشبه البياتي حضارة الغرب بالعجوز السافلة وهو يشير الى فوات عمرها وقد فاتها الأمل المنشود بعدم السعادة أو الزواج أو الراحة على الأقل في قوله:

أيتها العجوز
ياهتيكة الأزرار
قد فاتك القطار٤٩

ولنازك الرائدة موقف مع القطار كوسيلة مادية -(قد تستخدمه نازك لإجراء توسعات داخل البناء المشهدي ويمكن ملاحظته في كل قصيدة أما لتأكيد حالة أو لمواصلة السرد حيث إننا نجد نازك شغوفة بالتفاصيل داخل الحالة او خارجها)٥٠ لكنه حين يمر باهتا فهو عمرها وليس القطار الحقيقي:

مر القطار
عجلاته غزلت رجاء
بت انتظر النهار
من اجله مر القطار
في ضوء مصباح القطار الباهت
سئمت مراقبة الظلام الصامت
تغفو دقائق ثم يوقظها القطار
في أوجه الغرباء يجمعهم قطار

اذ ذاك يتئد القطار المجهد
والنائمين وهم جلوس في القطار
مر القطار وضاع في قلب القفار٥١

القصيدة تفصح عن صورة القطار بواقعية حيث ينتقل به الإنسان إبان الستينات فكان بسيطا ولكنه بالرغم من تعبه لكنها تنتظره فلا وسيلة غيره

عد بنا يا قطار
فالظلام رهيب هنا والسكون ثقيل
عد بنا يا قطار
سئمنا الطواف وطال البعاد
عد بنا يا قطار الشمال
فهناك وراء الجبال
الوجوه الرقاق التي حجبتها الليال٥٢

وهي تصف قطار الموصل قديما وما ترك من اثر في قلبها وهي تحن للطيبن من أهل الشمال:

حيث أيامنا في انتظار طويل
وقفت في انتظار
تتحرى رجوع القطار
عد بنا يا قطار
فالليالي قصار ٥٣

والسياب واحد من شعراء العصر الحديث ذكر القطار وسيلة دالة على الرحيل وابتعاد الأحبة"مبتدءا بالأسطورة والرمز :

لوكنلوب الحزينة زوجتي
تترقب الانسام
لعل جناح طيارة
كمحراث من الفولاذ شقق بينها الأقلام
ليزرع ثم أزهاره ٥٤

وقد تكن الطائرة لعنة ونقمة على العاشق المنهك أمثال السياب حين يودع حبيبته فالدنيا بدونها لا تسوى شيئا

لست أهواها كما أهواك
-يا أغلى دم ساقى دمي
أنها ذكراي ولكنك غيري ثائره

من حياة عشتها قبل لقانا
وهوى قبل هوانا
أوصدي الباب غدا تطويك عني طائره ٥٥
ويظهر واضحا أمر يأسه من فراقها وان الطائرة سوف تنقلها عنه بعيدا

٣/ وسائل السماع واللهو والوقت---القيثارة

وماذا بعد الموسيقى من معطى دال على ذوق الإنسان وكيف والعراق يقف في مقدمة الصفوف في هذا المعطى فالشاعر الأعشى يكنى بصناجة العرب وزرياب الموصلي وآخرين كلهم إشارات دالة على تحضر يهتم بالموسيقى وسيلة للخطاب والترف
قال الشاعر السياب:

صوت يدوي في قلاع الرياح
يا ليتك الشتاء في الصمت
لا عازف القيثار باسم الجراح
وأنت في سفينة القرصان٥٦

ويجمع بين الدلالتين(القيثارة والسفينة ولكن الثانية تأخذ منحى آخر وهو القرصنة إشارة الى مجريات الزمن ومشاكل البشر وللقيثار في موقع آخر يقول السياب:

والصانعين قيا ثرا أوتارها أعراق هذي الأمة الخرساء٥٧

وتظهر دالة الناقوس مشيرة إلى قهر الطبيعة للإنسان:

وتقرع –يا للصدى في خيالي
نواقيس من شعره في الضباب٥٨

وفي قصيدة أسير القراصنة ينطلق السياب محددا دور الأوتار أو القيثارة وهي آلة طرب ذات ستة أوتار وهو يعرف أن الموسيقى علاج للروح وعد القيثارة نوعا من العلاج ليشفيه من دائه ولكنه لم ينفعه

وحينما تجتمع النجوم على صدى مرضه فيرن قيثاره وتعزف أوتار أوجاعه سدى فمن يسمع ومن يجيب أنها شكواه من قساوة الزمن والمرض:

وترتعش النجوم على صداه
يرن قيثاره
بأعماق السماء ظلام هذا الليل أوتار٥٩

وللقيثارة عند البياتي رؤى متعددة منها (إعلانه الحرب على دعاة الفن والمتحذلقين)٦٠ لذا يقول مخاطبا مالك حداد:وهو يعبر عن صرخته متاثرا بموت الفن ومنه المسرح المهمل والقيثارة الساكتة والممثل المنسي الذي داسته الثعالب:

أحس بالهوان
بالمسرح الخاوي وبالقياثر المحطمة
تئن بالممثل الثقيل
بالرائع النبيل تدوسه الثعالب٦١

هنا يظهر ميله للواقعية فيناقش المسرح وقضاياه وكيف يحس بان الإنسان الكبير أصبح دبا يحشى رأسه بالقش والدخان على حد قوله

وفي مدار الالتزام بالوطن الذي يسميه وطن الحرية والغناء والكفاح وطن الفن والقوة ويشير إلى القيثارة بوصفها من وسائل الطرب العراقي ا الأصيل من زرياب الموصلي حتى امتداد آخر فنان:

الوطن الممتد كالقوس من القلب إلى القيثار
الوطن الممتد كالسيف من النهر إلى الصحراء٦٢

والبياتي يستعير القيثارة وسيلة تعبير ويستعملها في أطوار شعره رمـــزا يوصـــل أوتارها دلالة الانسجام أو الإشارة إلى الأغلال

هذا بلا أمس وهذا غده قيثارة خرساء
داعبها فانقطعت أوتارها ولاذ بالصهباء٦٣

وربما يشير إلى موهبة الشعر قيثارة يخرسها الزمن وقال:

حزن بلا صوت وقيثارة–
أرهقها قبل الأوان الشقاء
فاحترقت أوتارها في يدي
وكان لي بها ومنها وفاء٦٤

اذ انه لايغمط القيثارة حقها ودورها بل يعترف بوفائها ،والساعة تأخذ جانبا حزينا عند نازك :

كان يوما تافها كان غريبا
أن تدق الساعة الكسلى وتحصي لحظاتي
انه لم يك يوما من حياتي٦٥

وتعود للساعة تسائلها عن معنى سعادتها:

وأنا من ألمي أصغي وأحصي كنت حيرى
اسأل الساعة ما جدوى حبوري
إن نكن نقضي الاماسي أنت أدرى غرباء ٦٦

أن الشكوى واضحة السياق فهي تقيم حوارا مع الساعة التي تخاطبها لا جدوى من الحبور فنحن غرباء في هذا الوطن،وتنطلق نازك من قول الرئيس الراحل جمال عبد الناصر(دقت ساعة العمل الثوري)وهي عبارته الشائعة التي أعلن فيها الحرب على العدو فقد أعدت هذه العبارة مستهلا لقصيدتها الساعة:

دقت الساعة في ارض بلادي العربيه
جلجلت ضجت ودوت ملء وديان قصيه٦٧

وأشار البياتي إلى الساعة نهاية محتومة ومختومة بالأسى :

دقت الساعات في قلب الضباب

نبحت عبر المدن الكلاب ٦٨

وأشار إلى ضياع العمر هباء في الضباب غير المكشوف بفعل تدهور الزمن وتغير الأحوال ولم ينس ساعة الميدان الكبيرة في بغداد وهي دالة حضارية صنعها الإنسان لمنفعته ومعرفة وقته بعد أن كان يستدل بالظل والإشراق والنجوم

قلبي على الأطفال في حدائق الزمان

دق ودقت ساعة الميدان٦٩

وكلنا نعلم بان اليوم ارب وعشرين ساعة ولكن للبياتي عدد آخر في قوله:

يموت والأحرار في عيونه–في الساعة الخامسة والعشرين٧٠

٤– وسائل الراحة والعبادة العلاج–المستشفى

من المعلوم أن السياب عانى ما عانى من مرض عضال ، فكان كثيراً ما يرتاد المستشفيات ، ويرقد على السرير ، لعلّه يجد من يشفيه من مرضه ، ولكن المرض يزداد يوماً بعد يوم ، وليصبح السياب معتمداً على العكاز في وقوفه . ويزداد به الأمر سوءاً ، ذلك ، فيقول في قصيدته :القن والمجرة :

ألا تباً لحبِّ هذهِ الآلامُ من عُقباهْ!
كأن شفاهنا ، حين التقت ، رسمت من القُبَل
سريراً نمتُ فيه أنت فيه الآه بعد الآه ،

وعكازاً عليه مشيتُ ثم هويت في ثقل .
لكن ما عليها من جُناح ، كنتُ معتداً
بذهني أوشبابي
سوف أصهرها ، أغيرّها كطيف في يد الفنّانْ
وقد غيرّتُ . لكنّ الذي غيّرتُ ماذا كانْ ؟
فؤاداً ضيقاً كاللحد .. كيف أوسِّع اللحدا؟

ونفساً حدّها بين السرير وبين قائمة الحساب كأنها قنٌ من الأقنان٧١

وهكذا يستمر السياب في تصوير حالة الألم التي يعيشها في المستشفيات ، ليصور لنا في قصيدته ((عكاز في الجحيم)) ، صورة مشفقة عن حالته ، وهو يتمنى الموت ليخلصه من آلامه المرة حيث يقول :

وبقيت أدورُ–حول الطاحونة من ألمي
ثوراً معصوباً ، كالصخرةِ ، هيهات تثور
والناس تسير إلى القمم لكني أعجزّ من سير
ويلاه – على قدمي
وسريري سجني ، تابوتي ، منفاي إلى الألم
والى العدم !!
وأقول سيأتي يوم من بعد شهور
أو بعد دهور !!
فأسيرُ ... أسيرُ على قدمي٧٢

وإذا تتبعنا شعر السياب ، ولاسيما في أعوامه الأخيرة نجده مليئا بالألم ، وذكر المستشفى والعكاز والسرير ؛ حيث ذكرها في أكثر من خمس وعشرين موضعا ؛ لأنه في تلك الفترة أينما يولي نظره ، يشاهد هذه الأشياء وفي رؤيا أخرى يصور المستشفى دالة على الشؤم والحزن في قوله:

أما رن الصدى في قبرك المنهار
من دهليز مستشفى
صداي أصيح من غيبوبة التخدير
انتفض على ومض المشارط
حين سفت من دمي سفا٧٣

وهكذا تظهر غصة الألم عند السياب وهو يعاني ما يعاني في المستشفيات التي أنهكت جسده وفكره وقد سمى المستشفى بالمجانين وهي واقعة في الزبير تضم المجانين من الناس الذين مزقتهم متاعب الحياة وتعقيداتها.

ولنازك سرير خاص تصنعه من البرد والعطر وهي تغني أغنية لليالي الصيف:

يا ليالي وإذا نمت فمدي–بردك المنعش والعطر سريرا

وأسيلي القمر العذب غديرا٧٤

٥/المعابد والمنائر والأسوار والنواقيس والأبراج

وسائل للإنسان ترسم أفقا للتدين البشري بدور العبادة وهي رمز الارتفاع والشموخ فالمنارة في قول السياب دالة على تطور المدينة وخروجها من البيت القصبي القديم المتعب وهي إشارة واقعية للمقارنة بين منائر الكويت العالية ومساجد البصرة القديمة التي أتعبها الزمنز في قوله:

وأمس سمعت في إيران صوت الديك في الفجر

ومن أفق المنائر في الكويت وزرقة البحر٧٥

والمسجد في رؤى السياب يظل مظلما خاليا من الأمل كما السفين الذي رف فوقه شراع حزين

تلاشت خطى موكب الدافنين

ومن مسجد القرية المعتم

تلوى ،كما رف فوق السفين شراع حزين٧٦

ولا يختلف اثنان بان السياب شاعر له دوره الأساس في ريادة الشعر الحر،فان إحالاته الفكرية تنقلنا إلى عطاء مقصود دالة على الصوت كالأجراس:

أجراس برج ضاع في قرارة البحر
الماء في الجرار،والغروب في الشجر
وتنضح الجرار أجراسا من المطر٧٧

هذا النقل الرائع لبويب يرتقي به الشاعر إلى رمز مشحون بالرؤى متجرد من سحنة جغرافية تحدد النهر بمسافة مرئية إلى بعد إنساني تتجلى صورة المعطى المنسوخة من التراث إلى وجه حضاري جديد

ولنازك رؤيا واقعية مع المعبد إذ تسميه معبدي وأظن على حد علمي صومعتها الذاتية وبيتها المعروف فأنها بعيدة عن الكنائس لرقي معيشتها وحياتها فقد أشار الدكتور عبد

الجبار البصري(المعبد حين يكون رمزا للبيت يتضمن شعور القداسة التي أسبغتها التقاليد على الرجل وعلى الزوجية كذلك) ٧٨

ونجدها تسمي هذا المعبد تسمية ذاتية صرفة (الشاعري)لأنها ترتاح فيه وليس من المعقول أن تسمي مكانا آخر

عشته في قصائدي ودموعي بين جدران معبدي الشاعري٧٩

ولنازك وقفة مع القلعة وهي معطى حضاري مؤكد على اهتمام العرب ببناء كيان يحميهم من العدو

من القلعة الرطبة الباردة
ومن ظلمات البيوت
من الشرف الماردة
من البرج حيث يد العنكبوت٨٠

وهنا تظهر الإشارة إلى البرج وهي تشير بطرف خفي إلى الصمت لعل البرج والاحتماء به عاملا للحصول على أسرارها الباهتة،

ولنازك معبد خاص من الصمت وهي تغني لبعثها القادم انه هواها اليوتبيبي الغائب عن الأنظار دائما

ألحدت ذكرياته بخرير الجدول العذب وانفعال الأغاني
وبنى الصمت معبدا كفر المرمر فيه ولاذ بالكتمان ٨١

حين وصف البياتي البرج أكد على أبراج بابل واحدة من عجائب الدنيا:

طافوا به الدنيا على أقدامهم متسولين
بنعيبه الدامي بنوا أبراج بابل
واستباحوا الكادحين٨٢

وقد وصف البياتي المساجد :

في الشرق في ارض المعابد والكنوز
حيث القباب وحيث آبار الزيوت٨٣

وهو يلمح عن ثروة العراق الضائعة ويشير إلى الشرق بوصف العراق قبلة الشرق وكثرة قبابه لا تعني قداسته الفعلية وكنوزه الضائعة سدى،ولم ينس البياتي المتاحف من اكبر معطيات العرب

وكانت المتاحف
تضم تيجان ملوك سبقوا السلاحف٨٤

وان كانت إشارة تهكمية قاتلة لما ينعكس من تصرفات الملوك فقد أعطاهم سمة واقعية في هجاء لاذع،ولم ينس الأسوار، وهي إشارة دالة على اهتمام العرب بالأسوار ولكنها قلبت أسوارا للسجن ومنع الحريات ولم تكن حامية للأوطان

بل أن الأسوار وما خلفها هم رجال الثورة الذين يحققون الحرية غدا للجماهير

لا نرهب السور الذي من خلفه يأتي الضياء٨٥

وقد وصف حمزة مصطفى شعر البياتي قائلا(أن كل شعر البياتي هو انعكاس لمتغيرين أساسين هما الأوضاع السياسية والانفعالات الذاتية)٨٦ وقد وجدنا هذا صحيحا فقد تبدو عملية التسامي عند البياتي واضحة للعيان وظاهرة من خلال وسيلتين هما المعبد والتمثال:

ماتت عائشة في المنفى
نجمة صبح صارت
لارا وخزامى هندا وصفاء
ومليكة كل الملكات
تمثالا كنعانيا٨٧

وكم أفصح البياتي عن تضاد بين الفناء والخلود غير مبتعد عن المعطيات في حكايته من أوراق عائشة)وعلى لسانها يتحدث قائلا:

في باب معبده أنوح
قالت سأحملها ذا مرت عصور
خاتما في إصبعي
وأنوح في جدث الضريح٨٨

لذا يقف البياتي غاضبا على ممن يدمرون وسائلهم :

أرى على أبوابك الطوفان
يكتسح الساسة والتجار
أرى خيول النار
تدمر الأبراج والاسوار٨٩

ولم تفت السياب الكهرباء وهي من الوسائل المهمة النافعة للإنسان وأشار إلى أن الكهرباء يتأثر بها الحجر مثلما يتأثر الزجاج في حرارة دم ابنه في غليانه وحرقته:

فكهرباء دارنا أصابت الحجر٩٠

ولم يفت السياب ذكر التمثال وسيلة وشاهدا يرمز لعطاء الإنسان وتخليد تراثه وتتنافس في إبداعه وصنعه الشعوب لأنه يدل على فن تشخيصي للإنسان وأثار حياته وتبدو إشارته الى أبداع الخزاف الذي يتفنن في صنع التمثال فلا يقدر على فنه احد غير موهوب:

يعجبه الخزاف تمثالا٩١

خاتمة في مسك الختام

ويبقى البحث في بداية الطريق ينشد من الباحثين الأجلاء ملاحظاتهم القيمة وقد توصلنا فيه إلى أن الرواد الثلاثة قد ذكروا تلك الوسائل التي مر ذكرها في متن المبحث ولما لها من أهمية في حياتهم وقد رأوها من حاجيات الإنسان التي تسهم في استقرار حياته وقد استخدمها كل شاعر حسب رؤياه وثقافته فالكتابة وسيلة ولكنها وردت في قصائدهم في مضامين ودلالات متنوعة وهكذا مع المفردات الأخرى وان وجدنا السياب أكثر الشعراء استخداما لتلك الوسائل لأنه عاش القرية والمدينة أكثر من الشاعرين ونازك و البياتي وأما الأخيران فكانا أكثر اقترابا من وسائل المدينة لأنهما عاشا تنقلا بين المدن وكثرت رحلاتهما خارج العراق أكثر من السياب الذي نظر للوسائل نظرة واقعية وصورها من مستلزمات حياته اليومية كالجسر والساعة والتمثال وغيرها.

هوامش البحث

١- خواطر وآراء /د،طه باقر٢٣.
٢- المنهجية في علم الاجتماع-مصطفى الحسناوي/٩.
٣-جماليات النص د. مسلم ٦٨.
٤-كتاب المنزلات -الكبيسي الحداثة ٧٩.
٥-سورة البقرة٢.
٣- ديوان السياب ٦١٣.
٤- ديوان السياب ٦٩٥.
٥- ديوان السياب١٠٤.
٦- ديوان السياب١٩٥.
٧- ديوان السياب١٩٤.
٨- ديوان نازك٨٤.

٩- شجرة القمر ٨٣.
١٠- ديوان نازك٨٧.
١١- نفسه.
١٢- نفسه.
١٣- النار والكلمات٦٧.
١٤- ديوان البياتي١٧٢.
١٥- نفسه ١٧٦.
١٦- نفسه ١١٩.
١٧- المنفى والملكوت ٥٨.
١٨- نفسه ٦٩.
١٩- ديوان البياتي ٧٥٦.
٢٠- قصيدة الحرف العائد ٧٢.
٢١- النار والكلمات ٨.
٢٢- نفسه ٧.
٢٣- سورة الكهف ٧١.
٢٤- ديوان السياب١٣٤.
٢٥- ديوان السياب٥٥٦.
٢٦- ديوان السياب٢٠١.
٢٧- ديوان السياب٢٨٢.
٢٨- ديوان السياب٦٤١.
٢٩- ديوان السياب٥٨٣.
٣٠- ديوان السياب٥٧١.
٣١- قيثارة الريح .٢٧
٣٢- اتجاهات /احسان ١٤.
٣٣- ديوان البياتي ٣٤٢.
٣٤- ديوان البياتي٤٢٥.
٣٥- ديوان البياتي٥٦٤.
٣٦- ديوان البياتي٤٢٦.
٣٧- ديوان البياتي٦٤.
٣٨- كتاب البحر ٦٧.
٣٩- ديوان نازك ٥٨.

٤٠- ديوان نازك١٣٠.
٤١- ديوان السياب ٤٢٨.
٤٢- نفسه ٦٥٤.
٤٣- ديوان السياب٤٣٥.
٤٤- ديوان السياب٦٤٦.
٤٥- ديوان البياتي٧١٣.
٤٦- ديوان البياتي٧٠٩.
٤٧- ديوان البياتي١٨١.
٤٨- نفسه ١٣.
٤٩- نفسه ١٢٧.
٥٠- ديوان السياب ٦٨٨.
٥١- نفسه ٦٧١.
٥٢- نفسه ٦١٧.
٥٣- نفسه ٨٤.
٥٤- نفسه ٣٨٤.
٥٥- نفسه ٦٠٨.
٥٦- المنفى ٢٧.
٥٧- النار والكلمات ١١٧.
٥٨- ديوان البياتي ١١٧.
٥٩- نفسه ٧٠.
٦٠- نفسه ٨٩.
٦١- ديوان نازك ٨٤.
٦٢- نفسه ٨٧.
٦٣- نفسه ٨٨.
٦٤- النار ٤٥.
٦٥- النار ٧٥.
٦٦- النار ٧٦.
٦٧- ديوان السياب .٨٨
٦٨- نفسه ٦٩١.
٦٩- نفسه ٦٧٣.
٧٠- ديوان نازك ٧٥.

٧١- نفسه ٢٦٩.
٧٢- نفسه ٦٣٠.
٧٣- البصري٧٣.
٧٤- ديوان نازك ٧٥.
٧٥- نفسه ١٣٤.
٧٦- الوجه والهوية ٦٧.
٧٧- ديوان البياتي ٤٣١.
٧٨- نفسه ١٣١.
٧٩- النار ١١٣.
٨٠- النار ٧١.
٨١- المنفى ٤٥.
٨٢- نفسه ٨٤.
٨٣- النار ٧٨.
٨٤- قصيدة عائشة ١١٢.
٨٥- ديوان السياب ٣٤١.
٩٠-نفسه ٣٤٢.
٩١-ديوان السياب٩٨.

مصادر البحث

-القرآن الكريم.
١-الأعمال الشعرية الكاملة -بدر شاكر السياب-دار الحرية للطباعة والنشر بغداد ط٣/٢٠٠٠م.
٢-الأعمال الشعرية الكاملة بدر شاكر السياب بقلم ناجي علوش – المجلد الأول والثاني دار الحرية ط٣/ بغداد ٢٠٠٠م.
٣-نازك الملائكة-الأعمال الشعرية الكاملة المجلس الأعلى للثقافة القاهرة ٢٠٠٢م.
٤-البياتي الوجه والمرآة -حمزة مصطفى الموسوعة الصغيرة-بغداد دار الشؤون الثقافية ١٩٩٤.
٥-جماليات النص الادبي-دراسات في البنية والدلالة-الدكتور مسلم حسب حسين -دار السياب – لندن٢٠٠٧ .
٦-خواطر وآراء في تراثنا الحضاري -د.طه باقر-مجلة آفاق عربية العدد٦/١٩٧٨.
٧-خواطر وآراء في تراثنا الحضاري -القسم الثاني -د.طه باقر-مجلة آفاق عربية-العدد٨ سنة ١٩٧٧.

٨-ديوان البياتي -دار العودة الجزء الأول بيروت لبنان ١٩٧١.

٩-ديوان الشعر العربي الحديث-قيثارة الريح-بدر شاكر السياب الطبعة الثانية ١٩٧١اشراف هاشم سمرجي،- مديرية الثقافة العامة وزارة الأعلام.

١٠-ديوان نازك الملائكة المجلد الثاني الطبعة الأولى ١٩٧١-دار العودة بيروت.

١١-ديوان عبد الوهاب البياتي دار العودة بيروت الطبعة الثالثة ١٩٧٩.

١٢- ديوان بدر شاكر السياب-دار العودة بيروت١٩٧١اتقديم ناجي علوش.

١٣- الرؤيا الإبداعية في شعر عبد الوهاب البياتي-عبد العزيز شرف مديرية الثقافة العامة بغداد ١٩٧٣.

١٤-السياب حياته وشعره-الدكتور إحسان عباس دار الثقافة بيروت ١٩٧٢ الطبعة الثانية.

١٥-سلسلة الشعر العربي المعاصر-دراسة وتقييم إيليا الحاوي دار الكتاب اللبناني بيروت لبنان.

١٧- شجرة القمر -نازك الملائكة دار العودة بيروت ١٩٦٧.

١٨-شناشيل ابنة الجلبي إقبال -بدر شاكر السياب-منشورات دار الطليعة بيروت.

١٩-عبد الوهاب البياتي -الذكريات والوثائق -أبو القاسم محمد كرو-دار المعارف للطباعة والنشر الطبعة الأولى ٢٠٠٠م.

-الغابة والفصول كتابات نقدية -الكتاب الثاني من شجر الغابة الحجري-طراد الكبيسي - بغداد١٩٧٩.

٢٠-قصائد حب على بوابات العالم السابع-عبد الوهاب البياتي مديرية الثقافة العامة-ديوان الشعر العربي الحديث -سلسلة المطبوعات الثقافية مؤسسة.

٢١-كتاب المنزلات الجزء الأول منزلة الحداثة-طراد الكبيسي-دار الشؤون الثقافية ١٩٩٢.

٢٢-كتاب المنزلات الجزء الثالث -طراد الكبيسي-دار الشؤون الثقافية بغداد ١٩٩٧.

٢٣-المشكلة الخلقية د.زكريا إبراهيم -دار مكتبة مصر القاهرة د.ت.

٢٤- المنفى والملكوت في شعر عبد الوهاب البياتي-شوقي خميس-دار العودة بيروت لبنان١٩٧١.

٢٥--المنهجية في علم الاجتماع-ترجمة مصطفى الحسناوي-دار الحداثة بيروت ١٩٨١.

٢٦-النار والكلمات- عبد الوهاب البياتي -دار العودة بيروت ١٩٧٠.

٢٧-نازك الملائكة الشعر والنظرية -عبد الجبار داود البصري دار الحرية للطباعة مطبعة الجمهورية بغداد ١٩٧١.